العنصريّة والعنصريّة المضادّة... عربيًا (ربيع ٢٠١١)

ملفّ من إعداد مراسلي مجلة الآداب

هل يمكن التكلّم على «عنصريّة عربيّة»؟

تبدو العبارة صادمة؛ فقد ألِفْنا ثقافةَ الضحيّة وسيكولوجيّتها التي تقرِّر أنّنا مظلومون معتدًى علينا، وتُنْكر كلَّ الإنكار أن يكون المظلومُ ظالمًا وضحيّةُ الجور جائرًا. لكنْ هل نتعامل مع السود كمساوين لنا؟ ثقافتنا القديمة كانت تزدريهم، ولطالما سمّيْنا الأسْودَ «عبدًا.» وثقافتنا الحديثة والمعاصرة لم تكد تفتح هذا الملفّ. وهل نظرتُنا إلى الآخرين غير العرَب الذين هم شركاؤنا في الوطن، كالكرد والأمازيغ والنوبيّين...، مبرّأة من نوازع التعالي والمركزيّة العربيّة التي ترْهن حقوقَهم بقضايانا المزعومة وأولويّاتنا المفروضة؟ بل هل التمثيلات التي يصنعها سكّانُ هذا البلد أو ذاك من بلداننا عن سكّان البلد المجاور خلوٌ من التقييمات والأحكام العنصريّة: كتمثيلات اللبنانيين حيال «السوريّ،» والمصريين حيال السودانيّين، والخليجيين حيال عربٍ وافدين من بلدانٍ أفقر؟ وهل أظهرتْ مجتمعاتُنا وثقافتُنا المعاصرة حساسيّةً حيال أوضاع العمالة الأجنبيّة الوافدة، وبخاصةٍ العاملون (وأكثر العاملات)، في الخدمة المنزليّة، والقادمون (والقادمات) من أندونيسيا والفيليبين وسيريلانكا وأثيوبيا. ؟ بل ربّما نتساءل إنْ لم تكن العلاقاتُ بين الجماعات الجهويّة والدينيّة والطائفيّة في بلداننا تعكس نمطًا عنصريًا من التفكير والممارسة، نمطًا سيتعيّن علينا أن نصوغه مفهوميًا ونوضحَ سماتِه في هذا الملفّ.

❖ ❖ ❖

لكنْ أليس الإلحاحُ على عنصريّةٍ عربيّةٍ مفترضةٍ بمثابة مفارقة تاريخيّة وأخلاقيّة اليوم؟ وهل تتفوّق ثقافةُ الضحيّة على ثقافة التبخيس والتسفيه الذاتيّ التي ازدهرتْ في ثقافتنا وسيكولوجيّتنا منذ أكثر من ثلاثة عقود، وحقّقتْ قفزةً كبيرةً في العقد الأخير، بصورةٍ ربّما تتصل بـ «ثقافة ما بعد ١١ أيلول ٢٠٠١»؟ وهل هناك جماعة بشريّة تتعرّض للتحقير والطعن في ثقافتها وجدارتها الحضاريّة والإنسانيّة أكثر ممّا يتعرّض له العربُ المعاصرون؟ وهل هناك دينٌ يقال عنه شيءٌ يداني ما يقال عن الإسلام اليوم، في الغرب، وفي بلداننا ذاتها؟ لقد أظهر ملاحظون غربيّون أنه لو أُبدلتْ كلمةُ «عرب» أو «مسلمين» في بعض النتاجات الثقافيّة والإعلاميّة الغربيّة بكلمة «يهود،» أو حتى «سود،» لأثارت ردودَ فعلٍ عاصفةً، قضائيّةً وسياسيّةً وثقافيّة. أفي ذلك ما يدلّ على أنّ العرب والمسلمين هم الشرّير العامّ العالميّ اليوم، المباح معنويًا وماديًا؟ وحين يتعرّض العربُ والمسلمون إلى عمليّة اغتيالٍ معنويّ لا ريب أنها الأوسعُ نطاقًا على مرّ التاريخ - ولو بفضل ثورة وسائل الاتصال ولكون مخاصمهم هو المركزَ الحضاريّ العالميّ - أفلا يكون الكلامُ على عنصريّة عربيّة انسياقًا دوغمائيًا وراء موجةٍ ثقافيّةٍ وإعلاميّةٍ يمينيّةٍ ورجعيّةٍ .. وعنصريّةٍ هي ذاتُها؟ وهل نغالي إنِ اعتبرْنا أنّ تأثيمَ العرب والمسلمين، والمثابرةَ على توليد شعورٍ بالذنْب لديهم، وشعورٍ بالنقص أيضًا، بمثابة سلاح تدميرٍ شامل لهم، يبدو أنّه أفلح بالفعل في إلحاق قدْرٍ كبيرٍ من التدمير في معنويّاتهم واحترامهم لأنفسهم؟ ألا يخفض الحواجزَ الأخلاقيّةَ والفكريّةَ التي تحميهم، فيعرّيهم ويبيحهم لمن يشاء ويقدر؟ وهل هذا كلُّه منفصلٌ عن نموذج ودور القوة الإسرائيليّة الكاسحة في إقليمنا، ونفوذها الكاسح بدوره في العالم؟ وهل هو منفصلٌ عن نموّ التيّارات اليمينيّة والثقافويّة في الغرب وهيمنتها؟ وفي جميع الحالات، ما هي العلاقة بين النزعات العنصريّة المحتملة وبين التفاوتات الطبقيّة؟ هل العنصريّة إيديولوجيّةُ عِرْق، أمْ إيديولوجيّةُ طبقة، أم مزيجٌ منهما؟

❖ ❖ ❖

نتطلّع إلى أن يسهم هذا الملفّ في مساءلة تفكيرنا وتفحّص ضميرنا ونقدِ خطاباتنا، دون تشويهٍ عُظاميّ أو تبخيسيّ. ونأمل أن يوفّر شهاداتٍ على وقائع وممارسات تجري في الواقع، وعلى خطاباتٍ يجري تداولُها، متجاوزًا الأحكامَ الانطباعيّة والتعميمات المجرّدة